الفصل الرابع

المبحث الأول

المرأة في الخطاب الفلسفي

حضور المرأة ككائن إنساني واجتماعي في الفكر العالمي سواء القديم والمعاصر، يتسم بعدم الوضوح خاصة على مستوى التعريف والمفهوم، ويتسم من ناحية أخرى بالتناقض على مستوى الأحكام.

وفي اللغة العربية المرأة تأنيث امرئ، والتي اشتقت من المرء. والمرء يعني الرجل كما يعني الإنسان الذي يخص الذكر والأنثى معا، وهو ما عبر عنه ابن منظور في قوله: "المرء تعني الرجل، ويقصد بالمرء أيضا الإنسان"(١).

يعتقد علماء الأنثربولوجيا أن المجتمعات الأولى عرفت نظاما أموسيا، تمثل في حكم المرأة وقيامها بتدبير المنزل والقبيلة معا، باعتبار أن الرجل (الذكر) منعته ظروف الصيد والمطاردة من الاستقرار، وبالتالي نصّب المرأة راعية للقبيلة أو الجماعة، وتكون بذلك المرأة إن صدق الافتراض أول من باشر الحكم وأمور تدبير الجماعة.

غير أن ظهور المجتمع الزراعي أدى إلى إعادة ترتيب نظام الحكم، فالرجل الصّياد أصبح يلازم المكان، وتقلد عندئذ كل ما له علاقة بالسلطة والحكم، وأصبحت المرأة منذ تلك الفترة كائنا ثانويا، بل ستجعل منها بعض الثقافات رمز الشّر وأحبولة الشيطان.

إن الأمم القديمة لم تعط المرأة المناصب الدينية والمدنية إلا في حالات نادرة - المجتمع الفرعوني منح المرأة حق الملك - من باب كونها قاصرة وغير مؤهلة، وأنّها لم

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، المجلد ٥، دار الجيل، بيروت، ص٤٥٩.

تخلق إلا للمتعة والنسل. وصف إيميل دوركايم تلك الوضعية الاجتماعية في قوله: "أهلية المناصب الدينية لم تتساوَ بين الجنسين، فكان الرجال يتمتعون بتلك المناصب بالدرجة الأولى، حيث كان ينظر للنساء على العموم بأنهن نجسات غير طاهرات، وبهذا يشكل الرجال الطبقة الممتازة في الجماعة بالنسبة للنساء"(١).

وفلاسفة اليونان القدامى تصنيفهم للمرأة لم يكن أفضل ممن سبقوهم من الأمم، ففيثاغورس ينظر لها على النحو التالي: "إن مبدأ الخير الذي خلق النظام والنور والرجل، ومبدأ الشر الذي خلق الفوضى والظلمات والمرأة"(٢). وبالتالي فالمرأة قرينة الشر في الفلسفة اليونانية وقبلها في الفلسفة المانوية والهندية.

وفي الفلسفة الأفلاطونية يأتي موضوع المرأة في كتاب الجمهورية المعروف عند المسلمين القدامى بكتاب السياسة، الذي يعالج فيه أفلاطون مسائل السياسة المدنية ضمن إشكالية العدالة. ورغم اعترافه للمرأة بضرورة السّماح لها بالقيام بالواجبات المدنية إلا أنه يعتبرها كائنا سلبيا، ينتمي إلى الطبقة الأخيرة من التصنيف الاجتماعي اليوناني، ومن جهة أخرى المرأة مجرد ماكينة إنجاب، ووسيلة للمشاع الأفلاطوني.

ولقد اشتهر عن أفلاطون قوله: "يا ليتني لم تلدن امرأة "(٣). ولذا اعتقد أن الحب الحقيقي والمثالي هو الذي يكون بين الذكران وليس ذلك الذي بين الرجال والنساء: "من أجل ذلك ينبغي أن نضع ناموسا في هذه المدينة بمقتضاه يكون حب المحبين وعشقهما بمثابة الحب الذي يكون بين الآباء والأبناء(٤).

---

(١) نقلا عن: عمر رضا كحالة، المرأة في القديم والحديث، مؤسسة الرسالة، بيروت،ط١٩٨١،٢،ص ٢٩٠.

(٢) نقلا عن: أحمد المانسي، الشيوعية والمرأة،صامد للنشر والتوزيع،تونس،د.ط .س، ص ١٠.

(٣) قول مأثور عن أفلاطون لكن لم نجد له تقيّيدا.

(٤) الضروري في السياسة ، ص ٩٧ .

إن قيمة المرأة عند البعض تكمن في كونها موضوع الحب والفن، الذي يلهم الشعراء والفنانين قبس الإبداع، وعليه يثور أفلاطون على الشعراء ويطلب من حاكم المدينة الفاضلة طردهم منها.

وجاء على لسان سقراط الحكيم في محاورة أفلاطون ما يلي: "إن وجود المرأة هنا أكبر منشأ للأزمة والانهيار في العالم، إن المرأة تشبه الشجرة المسمومة حيث يكون ظاهرها جميل ولكن عندما تأكل العصافير منها تموت حالا "(١).

إن المرأة في التصور الأفلاطوني تصبح ملازمة للموت والفناء، ولعل الخلود يتحقق عندما يستطيع الرجل التخلص من المرأة التي خلقتها الآلهة فقط لغوايته.

والعرض الأفلاطوني لمشكلة المرأة لا يخرج عن الرؤية الاجتماعية السائدة في المجتمع الأثيني، وبالتالي هي تقر ثقافة الأساطير، وأعطت مصداقية للعرف اليوناني.

١- المرأة ما هو كائن وما ينبغي أن تكون عليه.

يعد ابن رشد أول فيلسوف عربي لفت النظر الاجتماعي إلى ضرورة إعادة النظر والسؤال في مسألة المرأة، ليس من الزاوية الفلسفية فحسب بل من جميع النواحي المعرفية.

وابن رشد أثناء عرضه لموضوع المرأة في المشروع السياسي، نلاحظه يخالف أفلاطون في ثلاث مسائل هامة:

-المرأة والغاية الإنسانية.

-المرأة والحكم.

-المرأة والحكمة (الفلسفة). . .

---

(١) نقلا عن: المرجع الأسبق،ص ١١.

بينما وافق أفلاطون في قضيتين أساسيتين هما على النحو التالي:

- المرأة والواجبات المدنية.

- المرأة والمشاعة الاجتماعية.

وقبل التطرق لشرح النقاط الخمس المذكورة أعلاه، ينبغي القول أن موقف ابن رشد من المرأة أشد إنسانية من الطرح الأفلاطوني، ذلك أن أفلاطون يقر التقسيم اليوناني للمجتمع والذي نعرضه على نمطين، فالنمط الأول يقسم المجتمع اليوناني إلى ثلاث فئات هي على النحو التالي:

- الطبقة الأولى: الحكماء والنبلاء.

- الطبقة الثانية:الجند والتجار.

- الطبقة الثالثة:العبيد والنساء.

ونلاحظ أن النساء جعلن في المرتبة الدنيا، بل أن العبيد أكثر رفعة منهن، ذاك أن العبد في المجتمع اليوناني هو الذي يوفر الحاجة للأسياد، وأن زوال العبد هو زوال النعمة والسعادة، لأن السادة لا يقدرون من موقع مكانتهم الاجتماعية الدخول في صراع مع التراب أو الشيء الذي هو حقل العبيد وموضوع وجوده.

ولكن لو أردنا تقسيما دقيقا، فلنتأمل النمط الثاني، والذي نقدمه على الصيغة التالية:

- الفلاسفة ـ اللوغوس ـ الحكم والنظر.

- النبلاء ـ القوة والذكاء ـ القيادة والحرب.

- الجند ـ القوة ـ الحرب.

- الحرفيون ـ الذكاء العملي ـ الصناعة والتجارة.

- العبيد ـــ اليد العاملة ـــ التراب.

- النساء ـــ النسل ـــ الإنجاب.

وفي كلتا الحالتين تقبع المرأة في المرتبة الأخيرة، إن النظرة الأفلاطونية لم تكن من إبداعه الخاص بل نظرة ورثها مما هو كائن وما يعكسه الواقع الاجتماعي، وما يحفظه اللاشعور الجمعي المتخم بالموروث الأسطوري الضارب في الثقافة الشعبية للأمم الجبلية التي ألّهت المرأة في السماء (١)، وألّهت الرجل في الأرض.

١-١- المرأة والحكم

في الكتاب الخامس من كتاب السياسة لأفلاطون، يأتي دور التناظر حول موضوع المرأة، والحديث عن مركزها في الدولة المزمع تشيدها. وهذا يعني أن غياب المرأة في الفصول السابقة يؤكد أن الرجال هم الفئة الأولى التي تبنى المدينة، وأن الحديث عن المرأة في متون النص السياسي لم يكن واردا إلا عندما أثاره أحد المحاورين حين سأل بوليمارخوس إيدمانتوس: "أنتركه يستمر وحده، أم ماذا نفعل ؟"(٢).

والعبارة تحاول الإشارة إلى تهرب سقراط من التعرض لمسألة المرأة داخل مشروع المدينة الفاضلة التي هم في صدد الحديث عن إمكانية قيامها.

عندها يحاول أفلاطون على لسان سقراط أن يعلل تغيب المرأة بالتبرير التالي: "ذلك إذن هو نوع الدولة والحكومة التي أراها خيرة قويمة، والفرد المناظر لها، بالقياس إلى هذا النوع تكون الأنماط الأخرى لتكوين الدولة، أو لطبيعة الفرد أنماطا ناقصة"(٣).

---

(١) عند دراسة تاريخ اليونان والأساطير نلاحظ أن أغلب الآلهة إناث،ذلك أن الأنثى رمز الخصب والحب، في حين أن الرجل أُله في الأرض من خلال أعماله وبطولاته كأركيل مثلا.

(٢) أفلاطون، الجمهورية،ص ٢٠٣.

(٣) أفلاطون، الجمهورية، ترجمة فؤاد زكريا،موفم للنشر، الجزائر، ١٩٩٠،ص ٢٠٣.

إن أفلاطون وفق العبارة السقراطية، يريد أن يؤكد أن الدولة الفاضلة تم الحديث عنها، واكتملت النظرية السياسية، ولم يبق الآن سوى الحديث عن نظائرها من الدول الفاسدة التي تملأ المعمورة، لكن المحاورين في الكتاب الخامس يجرون سقراط إلى الحديث عن النساء في نظام الدولة الفاضلة قبل الحديث عن الدول المضادة والفاسدة.ونلاحظ ذلك من خلال قول إيدمانتوس: "يبدو أنك تمضي كما تهو، وأنك تخفي عنا جزءا عظيم الأهمية من الموضوع، وذلك لأنك لا تملك له تفسيرا، فلقد قلت أن الجميع يعلمون أن كل أنثى مشاع بين الأصدقاء فيما يتعلق بالنساء والأطفال، وظَننتَ أنك أفلت منا بهذه الملاحظة العابرة "(١).

يعلق سقراط على تدخل إيدمانتوس كون عدم حديثه عن النساء ناجم عن الأسباب التالية:

١- "خشية أن يؤدي بنا إلى كثير من الصدام"(٢).

٢- "إنك يا صديقي لا تدرك مدى صعوبة هذا الموضوع، فهو يثير من الشكوك أكثر مما صادفنا حتى الآن"(٣).

٣- "إنني أرى أن تحديد الشروط التي ينبغي بمقتضاها للرجال الذين يولدون وينشأون على النحو الذي ذكرناه أن يمتلكوا النساء والأطفال، وتحديد طرق معاملاتهم، إن هذا التحديد لا يتم على النحو الصحيح، إلا إذا التزمنا نفس الطريقة الذي سرنا فيه منذ البداية، وذلك حين أخذنا على عاتقنا أن نكوِّن محاربين في خطتنا هذه، وكأنهم كلاب حراسة القطيع"(٤).

---

(١) المصدر نفسه،ص ٢٠٤.
(٢) المصدر نفسه،٢٠٥.
(٣) المصدر والمكان نفسه.
(٤) المصدر نفسه،ص .ص ٢٠٦-٢٠٧.

ونستنتج من العبارات الآنفة ما يلي:

١- أن موضوع المرأة يؤدي إلى الصدام بين المتحاورين، لأن موضوع المرأة مرتبط بالثقافة المكتسبة، والنظرة التيموسية للرجل المتجهة نحو شقه المتعالي الميغالوتيموس، فالرجل اللاتيني لا زالت ثقافته البربرية تسكن شعوره، وموضوع المرأة في مجتمع خرج من حالة ما قبل التحضر يرتبط بفكرة هامشية المرأة، وأن وظيفة المرأة تدبير المنزل، لأن تدبير المدينة من مهام الرجل فقط.

ومنه يصبح كل محاور يوظف المرأة كما يريد لا كما ينبغي أن يكون، وهنا تتداخل الخلفيات والمصالح ويغدو الحوار حول موضوع المرأة مجرد تبرير لغريزة التملك.

٢- كل نقاش حول الموضوع السابق يكتسي صعوبة، ويتطلب الأمر من المحاور جملة من الشكوك تجاه الآخر، ذلك أن علاقة الرجل بالمرأة تُحدد كثيرا من مواقفه غير المُعلنة.

٣-إن طبيعة تكوين الدولة يعتمد على الرجل كونه هو الوحيد المؤهل للنظر الفلسفي، كما أنه هو الوحيد الذي يصلح أن يكون محاربا، أي مشروع كلب حراسة.

ومن خلال ما سبق يحدد أفلاطون على لسان سقراط دور المرأة والمتمثل فيما يلي:

١-لو كانت طبيعة المرأة كطبيعة الرجل من حيث الدرجة والقوة فإنه يلزم أن تخضع المرأة لنفس برامج التعليم التي يخضع له الذكر، وبالتالي تتقلد نفس المناصب، وتتحصل على نفس المكاسب.

وليس من الغرابة عندئذ أن تكون المرأة حاكمة وحكيمة، لكن المرأة تختلف طبيعتها عن طبيعة الرجل حسب رأي أفلاطون لا من حيث العقل والقوة فحسب، ومنه يتعين أن لا تخضع لنفس برامج التعليم التي يخضع لها الرجل. وليس من العدل في

الدولة الجديدة المزمع تحقيقها في المجتمع الأثيني أن تمنح النساء المناصب العليا في الدولة للعلّة السابقة(الحرب-الحكم).

ونستدل على ذلك من خلال العبارات التالية:

١- "أنعتقد نحن أن على إناث كلاب الحراسة أن تسهر كالذكور على حراسة القطيع، وتصطاد معهم في كل ما يفعلون، أم أن عليها أن تلتزم بيتها، على أساس أنها لا تصلح إلا لرعاية صغارها، بينما ينصرف الذكور وحدهم إلى العمل وإلى حراسة القطيع ؟"(١).

إن أفلاطون يحاول أن يفترض وضعين للمرأة:

- المرأة المشاركة في كل الأنشطة المنوطة بالذكر، قياسا على إناث الحيوانات.

- المرأة المربية للأطفال فحسب.

ونعلم من سياق العبارة أن أفلاطون يرجح الافتراض الثاني، وذاك على لسان غولكون حين يجيب سقراط: "إن على الجنسين معا أن يقوما معا بكل شيء سويا، ولكن ليس لنا أن ننسى ضعف أحدهما وقوة الأخر(٢)".

إن غولكون لم يكن وفيا لمقدمة طرحه، لأنه في آخر طرحه يثبت ما يريده أفلاطون، أي ضعف المرأة وقوة الرجل، فلو كان الطرفين على نفس الدرجة إذن لأمكن أن يقوما بكل شيئا سويا.

ويتابع أفلاطون برهانه على عدم أهلية المرأة للحكم من خلال سؤال سقراط:

---

(١) أفلاطون، الجمهورية،ص ٢٠٧.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٠٧ .

"وهل يمكن أن نعهد إلى حيوان بنفس عمل حيوان آخر، إن لم نغذه ونتعهده بنفس الطريقة ؟"(١).

إن غلوكون يحسم الأمر في إجابة واحدة وهي: "هذا محال"(٢).

إن المحاورة تذهب إلى ترسيخ قاعدة اجتماعية لا معرفية، هي أن المرأة من حيث الجنس هي والرجل سيان وعلى السواء، لكن بما أن للجنس أنواع تتحدد من خلال الخصائص كالضعف والقوة، تصبح المرأة نوع، ومنه لا يمكن أن نمنح النساء وظائفا في الدولة لكونه يدخل في منطق المحال الاجتماعي.

وأفلاطون أراد أن يجعل الطبيعة هي المسؤولة عن ترتيب المرأة في السلم الاجتماعي، وبالتالي فليس هناك ما يتنافى مع روح العدالة التي هي أحد العناصر الأربعة المكونة للفضيلة.ومنه فإن محاولة إعادة ترتيب وضع المرأة في المجتمع يعد عملا اعتباطيا، ويدخل في منطق المحال الغلوكوني.كما أنه يخالف الطبيعة التي هي مصدر الموجودات، وكل شيء جعلت له غاية وحكمة من وجوده.

١- أن دور المرأة من خلال ما سبق يتمثل في الإنجاب أولا، ثم تربية الصغار والسهر عليهم كما تسهر كل أنثى على صغارها، وآخر ما تقوم به هو تدبير المنزل الذي يعد أنقص التدابير، ولا يرتقي إلى مرتبة تدبير المدينة التي يغدو تدبيرها عملا ونظرا سياسيا.

٢- ومن جهة أخرى أن منطق أفلاطون في السياسة المدنية يذهب إلى القول بضرورة أن يتعلم كل مواطن بالمدينة الفاضلة مهنة وحرفة واحدة، ولا يجوز لأحد أن يجمع بين اثنتين، لأن من أسباب سقوط المدينة كثرة المشتركين في الحرفة الذي يؤدي

---

(١) المصدر نفسه،ص ٢٠٧.
(٢) المصدر والمكان نفسه.

حتما إلى ضعف اللحمة الاجتماعية التي تدفعنا إليها حاجة بعضنا للبعض، فلو امتهن كل مواطن عدة حرف لوجد نفسه في غنى عن أخيه المواطن.

وعليه فالمرأة مهنتها وحيدة مثلها مثل الرجل عندما نوجهه للحرفة التي تتناسب مع مؤهلاته، وبما أن المرأة حددنا وظيفتها في التربية والرعاية فإنه يستحيل أن تمتهن غير ذلك، ووفق ذلك فقط نحفظ التناغم الموجود داخل المدينة الفاضلة.

ومما سبق يقر أفلاطون مسلمته الاجتماعية قائلا: "ليس من داع يا سقراط وجلكون أن يعارضكما غيركما في هذه الآراء، فلقد أقررتما بنفسيكما حين بدأتما تشيدان هذه الدولة، بأن من الضروري أن يؤدي واحد مهنة واحدة فحسب، وهي تلك التي تتفق وطبيعته"(١).

وعندما نتابع نص المحاورة نلاحظ أن أفلاطون يحاول أن يوهم السامع أن أمر النساء في مشروعه السياسي أمر مفرغ منه بالبرهان، ولكن رغم ذلك يحاول أن يسوق السؤال التالي الذي ظاهره معرفي وباطنه إيديولوجي: "فهل هناك من ينكر أن بين الرجل وطبيعة المرأة فرقا هائلا؟؟"(٢).

وكعادة أفلاطون في فن المحاورة – يريد أن يصل إلى صحة المسلمة التي انطلق منها- يقدم الإجابة التالية: "لا أحد ينكر ذلك؟؟"(٣).

والنتيجة كلية سالبة، موضوعها ومحمولها مستغرق، تجزم أن الفرق بين المرأة والرجل ثابت وواقع، وعليه يصبح الرجل أقوى من المرأة وأفضل، عندئذ لا بد من الإقرار

---

(١) المصدر السابق، ص٢٠٩.
(٢) المصدر والمكان نفسه.
(٣) المصدر السابق،٢٠٩ .

بالقاعدة التالية: "وإذن، فلا بد من اختلاف العمل الذي يعهد إلى كل منهما وفقا لطبيعته(١)".

وبما أن الرجل هو المسؤول عن جلب الأمن والغذاء فإن من مهام المرأة توفير المتعة له، ذلك أن المحارب يحتاج في فترات راحته واستجمامه الجسد الناعم واللذة الجنسية، وأن المرأة حتى لا تتحول إلى مِلك لذكر بعينه فإنه من الضروري إحلال مشاعيتها.

ولا يكتمل البرهان الأفلاطوني دون الرجوع إلى فلسفة الجمال والفن، من خلال المثال الذي يسوقه أفلاطون، وهو كالتالي:

لو أردنا تكوين المرأة تكوينا حربيا، وإعدادها إعدادا بدنيا، فإنه يتطلب من المربي تربيتها تربية بدنية، وبما أن الرياضة تتطلب حسب رأي أفلاطون التعري التام -على عادة أهل اليونان- لكي يَفتل الرجل ساعده، ويعد جسده إعدادا يليق بالمحارب.فإن المرأة سواء في حالة الشباب أو الكهولة لا يمكنها ممارسة الرياضة لعدم جواز التعري، فالمرأة الشابة لو تعرت لألهَتِ الرجال بمفاتن جسدها، فينشغل الرجال بالنظر إليها فلا يحصل التعلم ولا الكمال. ومن جهة أخرى تفتر همم الرجال وتغلبهم الشهوة، فيفقدون صفة المحارب.

أما المتقدمات في السن من النساء في حالة تعريهن فإنهن بصورهن المتهرتلة وأثدائهن المتدلية، وجلودهن المنكشمة يثرن في نفوس الرجال القبح لقبح منظرهن، فيؤثر ذلك على تعلم فن الحرب والحراسة، ولنتأمل القول التالي:

---

(١) المصدر نفسه،ص٢١٠.

"لا شك أن قيام النساء بالتدريب وهن عاريات تماما مع الرجال في حلبة الرياضة، ولا أعني بذلك الصغيرات منهن فحسب، وإنما أعني المتقدمات منهن في السن أيضا، كالشيوخ الذين يميلون إلى رياضة أبدانهم مع انكماش أجسامهم وقبح منظرها..

- أجل إن هذا لا يبدو غريبا حقا إذا تأملنا العرف السائد(١)".

يلاحظ القارئ للوهلة الأولى سذاجة البرهان الأفلاطوني الأخير، فإذا كانت علة عدم ترقية النساء إلى مرتبة المحاربين يعود إلى عدم جواز السماح لهن بتعلم الرياضة لكون العرف الاجتماعي اليوناني وقيم الجمال يمنعان تعرية المرأة داخلة حلبة الصراع، فإن السؤال الذي ينبغي طرحه هو: ما المانع أن يتعلمن الرياضة الحربية بعيدا عن الرجال؟؟.وهل من الضروري اقتران ممارسة الرياضة بالتعري التام؟؟

إن أفلاطون عندما لم يجد برهانا عقليا في شأن المرأة عمد إلى العرف، ولعله أراد أن يحسم القضية نهائيا، فقوة العرف لها من الأثر ما لا يدفعه أحيانا العقل أو الشرع، لأنه أصبح بفعل سلطان العادة أمرا مقضيا. ولعل دافيد هيوم عندما هاجم العقل وأنصاره معتبرا أنه مجرد أسطورة ميتافزيقية، وأن العقل المتعالي عن الذات لا وجود له، وإنما العقل هو تلك التجارب والأعراف المتراكمة شكلت بفعل الزمن ملكة سميناها العقل، يكون قد أصاب في بعض كلامه.

ولكن الغريب في الأمر أن الذاكرة الأسطورية الإغريقية تحدثت في رحلة جيزون عن مدينة شديدة البأس، حراسها وجندها النساء، وقد استطعن أن يأسرن فرقة جيزون التي قهرت ذا البأس من المحاربين(٢).

---

(١) المصدر السابق،ص ٢٠٩.

(٢) أسطورة يونانية تروي قصة ابن ملك يقوم برحلة خطيرة في البحر من أجل استرجاع ملكه، يتعرض خلال مسيرته إلى الكثير من العجائب والغرائب، ويتعرف على إمارة تحكمها النساء فقط.

٢- إن أفلاطون يجيد حبك تركيب الأفكار وتنسيقها، فلكي تصبح المرأة موضوعا خارج بؤرة الحدث السياسي والاجتماعي يقدم أفلاطون فكرة جعل النساء في المدينة الجديدة ملكا مُشاعا بين رجال الدولة، والغرض في اعتقاده وضع حد لمقولة "هذا لي".

إن شر الأمور التي تؤدي بالدولة إلى التبدل والانهيار جنوح الرجال إلى التملك وكنز الأموال. وبما أن المشروع السياسي الأفلاطوني قائم على عدم الملكية أصلا، فإن المرأة باعتبارها شيئا يتنافس عليه الرجال ينبغي أن نجعلها ملكا للجميع.

ويبدو لنا أن القضية تسير وفق متتالية فلسفية يفرضها منطق النظرية السياسية، لكن في الحقيقة أن أفلاطون يريد من وراء الفكرة إرضاء جميع الرجال، وبالخصوص المحاربين.

إنه يعتقد أنه من الغرر أن يخالف الرجل طبيعته، فيسجن نفسه المتعالية والتائقة إلى عالم الكمال في أسرة محصورة ومحدودة المجال، وأن يدنس نفسه بحب أنثى.

إن المرأة في النظرة الأفلاطونية مجرد محطة لذة في مسيرة حارس المدينة، وإذا كانت الغاية من الزواج كعقد هو حفظ النسل، فإن أفلاطون يقترح طريقة أخرى لحفظ النسل، تتمثل في تنكيح أحسن النساء لأحسن الرجال، بغية إنجاب أحسن الأطفال.

إن الدولة المزمع إنشاؤها في نظر أفلاطون تسير وفق نسق رياضي، والنتيجة المتحصل عليها من خلال المقدمات السابقة تقر من حيث المنهج لا من حيث الحقيقة القاعدة التالية: "وأن تكن المرأة في كل شيء أدنى قدرة من الرجل[١]".

---

(١) المصدر السابق، ص ٢١٤.

إن السؤال الذي يعقب النتيجة هو ما طرحه غلوكون على سقراط: "فهل يعني ذلك أن نعهد بكل شيء إلى الرجال من دون النساء"[1].

إن أفلاطون أراد أن يخفف من حكمه على النساء، محاولا إعطاء بعض الامتيازات لفئة منهن على الأقل – نعتقد أنها فئة النبلاء – فيجيب على لسان سقراط أن النساء الموهوبات في الطب والموسيقى[2] لابد أن يوجهن إلى امتهان الطب والموسيقى.

إن الخط الفلسفي الذي رسمه أفلاطون لا يخرج عن سياق العقلية اليونانية، كما أنه لا يخرج عن فلسفات أغلب الشعوب القديمة.

١-٢- المرأة والمشاعة الاجتماعية

يعتقد بعض الباحثين في التراث الرشدي أن ابن رشد يتبنى شيوعية النساء والولدان التي قال بها أفلاطون، وخاصة المفكر الإنجليزي ليرنر (Lerner). وقبل أن نتطرق إلى تحليل ونقد موقف ابن رشد من مسألة شيوعية النساء والولدان يجب أن نحلل التصور الأفلاطوني للمشاعة المقترحة من خلال الفهم الرشدي أولا ثم من خلال المتن الأفلاطوني.

إن ابن رشد يرى أن وحدة المدينة تُعتبر أهم غاية وأعظمها شأنا، لكونها تؤدي بالجماعة إلى التكتل والوحدة، وتكون بذلك كالجسد الواحد: "وذلك لأن اشتراك أجزاء هذه المدن في مدينة واحدة، هو اشتراك أجزاء هذه المدن في مدينة واحدة، هو كاشتراك أعضاء الجسم الحي في الألم واللذة اللذين يعمان سائر الجسم، ولذلك يتألم الجسد كله إذا تألم الإصبع الواحد منه ويسرى هذا الألم في الجسد كله"[3]. لكن الوحدة المنشودة تعترضها جملة من المضادات والصعوبات، والتي يمكن حصرها في النقاط التالية:

---

(١) المصدر والمكان نفسه.

(٢) المصدر والمكان نفه.

(٣) الضروري في السياسة، ص ١٣٠.

(*) اقتبسه من الحديث النبوي (راجع فهرس الآيات والأحاديث)

أولا: مقولة "هذا لي وهذا ليس لي"(*).

لقد جاء في كثير من المتون الفلسفية والدينية أن الشّر بدأ مع مقولة الإنسان "هذا لي"، وهي تعكس بداية الأنانية وحب السيطرة على الأشياء والممتلكات بما فيها المخلوقات التي أرقها وأشرفها الإنسان، ولذا يرى أفلاطون أن المرأة تدخل في مقولة "هذا لي "لما تحققه من لذة حسية للرجال ومتعة معنوية، وأن المرأة بذلك كانت موضوع الخصومات والنزاعات وتعظم الشرور. والمدينة الفاضلة بما أن قوتها في الوحدة فإنه يسهل على النوابت تدميرها عن طريق إشاعة قضية النساء. لأن النساء ليس بطبعهن مجتلبات للشرور ولكن الشر حاصل مما يحصل عندهن من المتع واللذات. وعليه فإن التّحاسد والتّخاصم على من يمتلك امرأة هو من بين أخطر ما يصيب المدينة الفاضلة. وذلك ما نراه في مجتمعاتنا كون الرجال يتصارعون على كسب قلوب النساء مما يخلق في كثير من الأوقات جرائم تهدد المجتمع ناهيك عن الأحقاد والضغائن وكره الرجال للرجال، وتفرق الأصدقاء والخلان، والأفظع من ذلك تقاتل الأخوة على ذلك مثلما حدث في فجر التاريخ بين هابيل وقابيل.

ثانيا: ما تنجبه النساء من ولدان

والنساء من حيث هن مختصات بالولادة يصبحن موضوعا للتحاسد، لأن الرجال يتباهون بالولد للنسب، كما أن المدن المنزلية إنما تقوم على أساس العصبية التي تنشأ من روابط الدم. وعندما يجتمع النساء ووالولدان معا ستكثر البغضاء وينمو الحسد، وتلك هي عين الشرور داخل الجماعة: "وأكثر من ذلك أن يكون له ولد ينسب إليه ونسوة ينفرد بهن، فيكون له هؤلاء مصدر شرور ومضار، وكما سبق القول، سببا في نشأة الشرور المؤذية للغير. وهذا هو أصل المنازعات، التي تحدث بين أهل هذه المدينة بسبب الأموال والأولاد والنسوة"(١).

---

(١) الضروري في السياسة،ص ١٣١.

ثالثا: ما تفرضه النساء من سكن

وبما أن الحافظ في المدينة ينبغي أن لا يكون له مِلك ولا سكن، فيتوجب عندئذ أن لا تكون له زوجة معينة. لأن وجود الزوجة يفرض عليه بالضرورة أن يكون له مسكن يجمعه بها ثم بولده منها مستقبلا. وبما أن المدينة الموحدة تستدعي عدم ارتباط الواحد منهم بزوجة أو ولد كما سبق فلا يجب أن يكون له مسكن خاص به، لأنه سيقوده آخر الأمر إلى القول هذا لي: "ولذلك قلنا أنه لا ينبغي أن يكون لأي منهم سكن يخصه، ولا أي شيء آخر ينفرد به فيقيم كل واحد منهم في سكنه بمعزل عن الآخرين[(١)]".

ومن جهة أخرى أن مبدأ الشراكة يعتبر ميثاق الجماعة الفاضلة يمنع أن يستأثر أحد بسكن لنفسه: "أنه بعيد أن يجوز للرجل السكن في بيت ينفرد به، إذ ليس لواحد من أهل هذه المدينة أمر يخصه وحده، وإنما شأنهم في اشتراكهم شأن اشتراك سائر الأعضاء في الجسم الواحد"[(٢)].

رابعا: ما يفرضه السكن من اموال

إن نظام الأسر بطبيعته يفرض الإنفاق على أعضاء الأسرة، ويغدو طلب المال هو الغاية لأن به حياة الأسرة ومستقبلها، وأن تأمين الضرورات في المدن المنزلية قائم على ما يكسبه رب الأسرة من أموال. وهنا تنشأ الحاجة إلى الأموال فيكثر الاحتيال والخداع، وتستفحل ظاهرة السرقة. فتحتاج الدولة إلى سن القوانين والشرائع لأجل سن العقوبات مما يفقد الدولة وحدتها وتحتاج إلى قضاة، ولكن في حالة العمل بمشاعة النساء والولدان، ومنع الحفظة من جمع الأموال وتكديسها تكون الدولة في غنى عن ما سبق: "ولذلك فلا حاجة لهم في سن العقوبات درءا للاستيلاء على الأموال أو السرقة أو غير ذلك من هذه الأمور القائمة في هذه المدن"[(٣)].

---

(١) المصدر والمكان نفسه.

(٢) المصدر نفسه،ص ١٢٩.

(٣) المصدر السابق،١٣١.

ومن خلال ما سبق نفهم من خلال التلخيص الرشدي للمتن الأفلاطوني أن الدعوة للمشاعة في جمهورية أفلاطون جاءت من أجل تجاوز تلك المضادات التي تعترض وحدة المدينة، وبالتالي فإن أفلاطون يرى أن المشاعة النسائية ينبغي أن تكون وفق الطريقة التالية:

١- الرجال مع النساء في الإقامة الواحدة

إن أخلاق أهل المدينة الفاضلة تمتاز بالعفة والحكمة، ومن هنا يجيز أفلاطون أن تقيم النساء مع الرجال في مسكن عام، ويقمن بنفس الواجبات المدنية التي يقوم بها الرجال: "أما شيوع النساء فيكون كذاك الذي وصفنا، وذلك بأن تكون النسوة مقيمات مع جميع الرجال دون أن يجوز لهم التزاوج بينهم(١)".

وعلة اشتراك النساء مع الرجال في السكن هو ناتج إن جميع ما في المدينة يخص الجميع بما فيها الغذاء واللباس: "فتبين له بعد ذلك أن على النساء أن يقمن بالحراسة كما يقوم بها الرجال، وإنهن يقمن وإياهم في مكان واحد، إذ ليس لأحد من الذين هم في المدينة من علية الحفظة مسكن يخصه، كما أن طعامهم سيكون شراكة"(٢).

٢- إن النّكاح مشروط بالحكمة

وبما أن وحدة الإقامة تحرك في النساء والرجال شهوة الاتصال ورغبة الجماع وذلك معلوم فيهم بالطبع، فإن النكاح داخل المجتمع المدني مشروط بالحكمة والعقل، وأن الحاكم لا يسمح بالنكاح لمن يريد بمن يريد، بل ينبغي أن يكون بمن يريد الحكماء. ومعنى ذلك أن الإنجاب قرار تتخذه الرئاسة الفاضلة، ويخضع لمنطق عدد السكان ومساحة الرقعة، ومن جهة أخرى أن الإنجاب مرتبط بمسألة انتقاء السلالة الراقية.

---

(١) المصدر نفسه،ص١٢٦.

(٢) المصدر والمكان نفسه.

ولهذا لا يجوز لرجل أن ينكح امرأة إلا في أوقات معينة: "ويجب أن يكون ترتيب إنجابهم على أفضل حال يكون عليها خلال الحراسة، لكن في أوقات محددة، ومع رجال وصفات معلومة[١]".

٣- النّكاح بين الحفظة يكون حسب طبيعة المعدن

ولا يجوز أن يسمح رؤساء المدينة الفاضلة أن ينكح رجل امرأة ليست من صنفه ومعدنه لأن الغاية من النكاح أصلا هي المحافظة على السلالة: "أما أيّ من الأفراد يتزوج مع أيّ نوع في هذه المدينة، فالأفراد الذين يشبه بعضهم بعضا، طلبا للحفاظ على أسمى خصالهم في نسلهم"[٢].

٤- النّكاح مشروط بالحرب

إن الإكثار من النسل مضر بالمدينة لكون المدينة محكومة بعدد معين ومحدد، ولكن يمكن أن يكثر من التناسل في حالة دوام الحروب حتى نضمن الخلف لمن تلف في الحرب. ومن جهة أخرى أن الحرب تفرض أن يكون الخلف شبيها بسلفه المحارب، وعليه ينبغي أن يسمح لأقوى الرجال بمجامعة أقوى النساء لكي تنجب أفضل الحراس[٣].

٥- ان النّكاح مشروط بالسن

يشترط أفلاطون أن يكون التناسل بين الحراس رجالا ونساء محدد بسن معينة، فالنساء يتناسلن ما بين سن العشرين والثلاثين، والعلة تكمن كون قوة المرأة وخصوبتها تكون في هذا المجال، أما الرجال في ما بين سن الثلاثين والخامسة والثلاثين

---

(١) الضروري في السياسة ، ص ١٢٦.
(٢) المصدر نفسه، ص١٢٧.
(٣) المصدر نفسه،ص ١٣٢.

للعلة نفسها، والتناسل في هذا السن المعين يتم بينهم على أساس التنوع والتعدد، فلا يختص رجل بامرأة طيلة السنين المحددة.

والعلة في ذلك حتى لا يكون منهما ولد معروف أو موصوف، وهو ما سنراه لا حقا كغاية وحكمة من المشاعة الاجتماعية.

٦-كيفية المشاعة

لا ينبغي لأي حافظ من المدينة أن يختص بامرأة واحدة، بل النساء مشاعات بين الرجال: "فهي أن تكون النساء مشاعة بين الرجال، وأن لا تقيم الواحدة منهن مع واحد منهم يختص بها، كما هو الأمر في هذه المدن(١)". والكيفية التي يتم بها التناسل تكون منظمة وفق حكمة قادة المدينة وفلاسفتها، فكلما دعتهم الحاجة إلى الإكثار من النسل دعوا الناس إلى إقامة الأفراح، فيذبحون القرابين وينشدون الأشعار.

ويجعلون من ذلك الميقات مناسبة لأهل المدينة تكون متكررة حتى يُعتقد أن المشاع حقيقة لا احتيال رغم كونه كذلك. وبعد ما ينالون حظهم من المرح واللهو يجتمع الرجال [٣٠/٣٥ سنة] والنساء [٢٠/٣٠ سنة] داخل دار كبيرة، ويعمد رئيس المدينة إلى إجراء القرعة التي تكون شكلية فقط، لأن الحكمة العملية تفرض أن يُنكح الرجل شبيهته. فيقترع للرجال على النساء: "بعد ذلك يجتمع الرجال والنسوة فيحتال [الحاكم] في القرعة فيقترعون للرجال على النساء، فتكون القرعة للواحد منهم على الواحدة منهن، وكأنها محض صدفة واتفاق، وبهذا يعتقدون أنهن مشاعات بينهم، بينما القصد الحقيقي من القرعة هوالجمع بين الأشباه(٢)".

---

(١) المصدر السابق،ص ١٢٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ص ١٢٨ . ١٢٧

ولعل المتتبع لنظرية أفلاطون في المشاعة الاجتماعية للمرأة يتساءل عن الغاية المدنية من جعل المرأة أمرا مشاعا بين الحفظة، وابن رشد في شرحه للمتن الأفلاطوني يقدم لنا الغاية الكبرى من جعل المرأة شركة بين الرجال، وتلك الغاية نخلص لها من خلال النتائج التالية:

أولا: أنه بعد أن تظهر أعراض الحمل على النسوة يفصلن عن غيرهن من النساء، ويقمن بجناح خاص بالتوليد والعناية، وما إن يلدن يُؤخذ منهن أولادهن حتى لا يعرفنهم ويُسَلّم الأولاد لمربيات يتعهدنهن بالرعاية والتربية الصالحة.

ثانيا: ضرورة اعتقاد رجال المدينة أن كل مولود من النساء هو ابن لهم بالضرورة لكون التناسل شمل أغلبهن من خلال تلك المناسبات المتكررة.

ومن خلال ما سبق نصل إلى تحقيق الغاية الكبرى من المشاعة، وهي أن تتحول المدينة كلها إلى وحدة متجانسة من خلال اعتقاد الأبناء أن جميع الرجال آباؤهم فيكنون لهم الاحترام والتقدير والحب، ويعتقد الرجال أن كل الأبناء أبناؤهم فيكنون لهم الحب والمودة، عندئذ يصبح الجميع يقولون "هذا لنا".وهو الخير الأعظم كما يقول ابن رشد(١).

ومن جهة أخرى يكون المجتمع الفاضل قد تخلص من رابطة الدم التي هي أساس قيام المدن المنزلية أعني العصبية، لأنه ستبقى قرابة واحدة هي قرابة الأبوة والأمومة والأجداد والأبناء والأخوة والأخوات فقط. ويكون التناسل طبعا بين الأخوة والأخوات فحسب(٢).

ويقدم ابن رشد الغاية الكبرى على لسان أفلاطون في قوله: "فإنه جلي أن الشياع في المنافع والمضار يقود إلى تضامن هذه المدينة وتآلفها. وذلك لأن أهل المدينة

---

(١) الضروري في السياسة، ص١٣١.
(٢) المصدر نفسه، ص١٢٨.

جميعا بما أنهم إذا عاشوا عاشوا جميعا، وإذا قتلوا قتلوا جميعا، كانت أفراحهم وأحزانهم في ذلك على مثل واحد[1]".

وبعد ما قدمنا التلخيص الرشدي لنظرية المشاعة الأفلاطونية، فإن السؤال الذي يفرض نفسه: هل يتبنى ابن رشد موقف أفلاطون في مشاعة النساء والولدان، علما أنه مسلم وفقيه ؟؟

المبحث الثاني

ابن رشد وإشكالية المرأة -الرؤية والمجاوزة.

إن ابن رشد في عرضه لكتاب أفلاطون [السياسة] يسجل وقفة فلسفية متقدمة، وتمثل قيمة الحداثة في عصره وعصرنا تجاه مسألة المرأة، ويقوم بثورة فكرية ضد الموروث العربي، وتجاه الفلسفة، وضد الفقه المرابطي والموحدي أيضا.

إنه وظف أفلاطون لكي يتقدم وينتقد وضع المرأة في المدينة الإسلامية وخاصة الأندلسية، بل يذهب إلى عمق المسألة الحضارية وفق ما نسميه اليوم بالنقد الحضاري عندما يجزم أن سبب مأساة المدينة الإسلامية يرتبط بوضع المرأة داخل الهيئة الاجتماعية، وهو ما تفطن إليه روزنتال في قوله: "ولكن سأقتصر على بيان شيئين أساسيين في شرحه لأفلاطون..... وانتقاده الصريح للدولة الإسلامية في عصره بما في ذلك استنكاره المدهش لمكانة المرأة في الإسلام"[2].

---

(١) المصدر نفسه، ١٣٠.

(٢) ج، روزنتال (آراء ابن رشد السياسية) مجلة البيّنة، العدد الأول، مايو ١٩٦٢، المغرب، ص ٩٥.